الرِّسَالة الأولى : لغة الشَّيطان[1] مع بني آدم عامَّة

آجال معلومة وأيام معدودة – طالت أم قصرت – كتبها الله على بني آدم ، تبدأ بأول أنفاسه ونبضات قلبه رمزًا لعنوان الحياة ، وتنتهي بإعدام حركاته وسكناته توديعًا لها ، أودع الله فيها كثيرًا من الآمال والرغبات والأماني والأمنيات وقعَّدها بقواعد الدِّين ، وضبطها بضابط اليقين حتى تظلَّ في ظلِّ دائرة الإيمان .

ولكن الشَّيطان أدرك هذه الحقيقة وعلمها ، وخبر جوهرها وعنوانها ، فأبصر ليلها ونهارها ، فانطلق يعدُّ لهم العدَّة ، ويُجيِّش لهم الجيوش ، ويجهِّز لهم أخبث الوسائل والسُّبُل التي تمكِّنُه من السيطرة على قلوبهم ، فيزرع فيها بذور المعاصي والآثام ، ويُنَمِّي فيها حبَّ الشهوات واللذات فيحصد ثمار ذلك بُعْدًا عن منهج الله الذي رسمه لعباده في حياتهم الدنيا، فيحقِّق بذلك أمنيته ، ويصل إلى هدفه ، فيخرج الإنسان بذلك من دائرة الإيمان ، وبالتالي من جنَّة الرَّحمن سبحانه وتعالى ، كما خرج هو بعصيانه وإبائه السجود لآدم عليه السلام .

وهذه هي مجموعة من الأشكال والصُّور التي عرضها الشَّيْطان على بني آدم كما صوَّرتها وجَسَّدت ملامحها لغة القرآن الكريم .

الصُّورة الأولى : سبيل[2] الإتيان (أ ت ي)

عندما سلك الشَّيطان سبيل العصيان وعرف أنَّه من الهالكين أقسم على غواية بني الإنسان انتقامًا منهم وبغضًا لهم ، وحسدًا على منزلتهم عند ربِّهم ، فالجنَّة أعدِّت لهم إلا من أبى ، والنَّار أعدِّت له ومن تبعه منهم أجمعين ، فكانت بداية الشَّيْطان مع أول سبيل ترصَّد به لبني الإنسان كما صوَّره القرآن الكريم بـ (القعود) لهم على صراط الله المستقيم ، لصَدِّهم وإعراضهم عنه، ثم ثنَّي بسبيل (الإتيان) كمحاولة منه لاحتوائهم وإمكان السيطرة عليهم ، بحيث لا يدع لهم باب خير إلا أغلقه، ولا شعاع نور إلا أطفأه ، فيغلق عليهم بذلك جميع

---

(1) قال أبو عبيدة : الشَّيْطان اسم لكل عارم من الجِنِّ والإنس والحيوانات . المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني (ش ط ن) ص 383 – مكتبة الأنجلو المصرية 1970م .

(2) السَّبِيل : الطَّريق الذي فيه سهولة ... ويستعمل السَّبِيل لكل ما يتوصل به إلى شيء خيرًا كان أو شرًّا . السابق (س ب ل) ص 326 ، 327.

السُّبُل التي تمكِّنهم من فتح باب الصِّلة بينهم وبين ربِّهم ، ولفظة (الإتيان) تعني في عرف أهل اللغة بـ : المجيء بسهولة[1] .

وفي التعبير بلفظة (الإتيان) ما يلحظ منه أن ذلك لم يحدث من الشيطان عفوًا أو عن غير قصد، بل فيه إصرار على آداء رسالته، وجدٌّ في تحصيلها ، وذلك كمبعوث لتأدية مهمة ما يريد أن ينفذها على وجه الدِّقَّة دون تهاون أو تقصير ، فيجد الإنسان الطريق أمام عينيه معبَّدًا لا حواجز فيه ولا موانع ، فيقع في شراكه ، فتغلق العيون والقلوب أبوابها ، إعلانًا للقبول ، وتسليمًا بصداقة لا يرجى منها إلا الفساد والإفساد .

ولكن ماذا يريد الشيطان من بني آدم عندما يأتي إليهم في أي صورة من الصُّور أو شكل من الأشكال ؟ .

هذا إجمال يحتاج إلى تفصيل ، وهو ما صوَّرته الآية الكريمة في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾[2]

فهذا الإتيان قد فصَّلته الآية في أربعة مداخل ، ثم ترجمه المفسِّرون في العبارات الآتية:

المدخل الأول (بين أيديهم): وتعني من قبل الآخرة ، فأزيِّن لهم التَّكذيب بالبعث ، وبالجَنَّة ، وبالنَّار .

المدخل الثاني (مِنْ خلفهم) : يعني من قبل الدنيا ، فأزيِّنها في أعينهم ، وأرغبِّهم فيها ، ولا يعطون فيها حقًّا .

المدخل الثالث (عن أيمانهم) يعني من قبل دينهم ، فإن كانوا على هدى شبَّهته عليهم حتى يشكُّوا فيه ، وإن كانوا على ضلالة زيَّنتها لهم .

المدخل الرابع (عن شمائلهم) : يعني من قبل الشَّهوات واللَّذات من المعاصي فأشهِّيها لهم [3] .

---

(1) السابق ص 7 . وينظر : تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري. تحقيق . أحمد عبد الغفور عطار 2261/6 – دار العلم للملايين – الطبعة الثالثة 1404هـ – 1984م .

(2) الأعراف من الآية 17 .

(3) ينظر هذه الدلالات في : تفسير مقاتل بن سليمان . تحقيق . أحمد فريد 385/1 – دار الكتب العلمية – لبنان – بيروت- الطبعة الأولى 1424هـ – 2003م ، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية – تحقيق . المجلس العلمي بفاس 23/7 – 1400هـ – 1980م ، والجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى) تحقيق . هشام سمير البخاري 175/7 – عالم الكتب – الرياض- المملكة العربية السعودية – 1423هـ – 2003م ، ومعالم التنزيل (تفسير البغوي) – حقَّقه . محمد عبد الله النمر وآخرون – 218/3 – دار طيبة – الطبعة الرابعة 1417هـ – 1997م .

وقيل : " معناه – والله أعلم – ثم لآتينهم في الضَّلال من جميع جهاتهم ، وقيل من بين أيديهم ، أي لأضِلَّنَّهم في جميع ما يتوقَّع ، وقيل أيضًا : لأخوفنَّهم بالفقر ، والحقيقة – والله أعلم – أي أنصرف لهم في الإضلال من جميع جهاتهم[1] " .

وكأنَّ الشَّيطان بهذه المداخل الأربعة قد أغلق على الإنسان كُلَّ جوانب النَّجَاة ، فكلما اتَّجَه إلى قبلة الخير وجدها موصدة ، ولكن قبلة الشر دائمًا وأبدًا مفتوحة على مصراعيها ، وفي هذا تمهيد لقبول الشَّرِّ والاحتكام إليه ، أوبالتعبيرالصَّحيح تمهيد لقبول إتيان الشَّيطان والتَّرحيب به ضيفًا عزيزًا في قلبه وعلى مائدته .

" وإنه سيأتي البشر من كل جهة : ﴿ مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡ ﴾ للحيلولة بينهم وبين الإيمان والطَّاعة . وهو مشهد شاخص متحرك لإطباق إبليس على البشر في محاولته الدائبة لإغوائهم ، فلا يعرفون الله ولا يشكرونه ، اللّٰهم إلا القليل الذي يفلت ويستجيب[2] " .

ولكن إذا كان الشَّيطان قد أغلق على بني الإنسان جميع الأبواب فلن يستطيع أن يحجب عنهم رحمة الله – ﷻ – ، لذلك قيل : " أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنَّه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله[3] " .

إذًا فتلك الحواجز التي بناها الشَّيْطان حول بني آدم ليحيط بهم من كل جانب لن يكسر حدودها ، ويُقَوِّض أركانها إلا رحمة الله – ﷻ – ، فليَسْع جميع بني البشر إلى إدراك هذه الرَّحمة ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[4] .

الصُّورة الثَّانية : سبيل الإحتناك (ح ن ك)

ظهرت بوادر الغيرة والحسد منذ بدء الخليقة بأقبح صورها وأسوأ حالاتها وتفرَّعت منها

---

(1) معاني القرآن وإعرابه للزجاج.تحقيق د. عبد الجليل شلبي 324/2 – دار الحديث – القاهرة – الطبعة الثانية 1418هـ – 1997م .

(2) في ظلال القرآن . سيد قطب 1267/2 – دار الشروق – الطبعة الشرعية السابعة عشرة 1410هـ – 1990م .

(3) تفسير القرآن العظيم لابن كثير 274/2 – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى 1416هـ – 1996م .

(4) المطففين من الآية 26 .

جميع أشكال العنف والقسوة حتى كادت أن تأكل الأخضر واليابس لولا رحمة ربِّي .

يرقى آدم – عليه السلام – إلى عليين بسجود الملائكة له ، ويقذف الشيطان بحجارة من سجيل بعد إبائه الاستجابة لربِّه والامتثال له ، وفي هذه اللحظة يقسم الشَّيْطان أمام ربِّه سبحانه وتعالى لئن أخَّره إلي يوم القيامة فلن يكون له هدف سوى إضلال بني آدم وصدِّهم عن طاعة ربِّهم .

" وقد علم الخبيث أنَّهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازمًا ببذل مجهوده على إغوائهم ، ظنَّ وصدق ظنَّه ، فقال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[1]" .

إذًا فما أقسم به الشَّيْطان وعزم عليه قد يكون من قبيل " قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ ﴾[2] فإنَّه يفيد أنَّه قال ما قاله هنا اعتمادًا على الظَّنِّ ، وقيل إنَّه استنبط ذلك من قول الملائكة : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[3] ، وقيل : علم ذلك من طبع البشر لما ركب فيهم من الشَّهوات، أو ظنَّ ذلك لأنه وسوس لآدم، فقبل منه ولم يجد له عزمًا[4] "

وقد وصل الغضب بالشَّيْطان في هذا السَّبيل إلي أنَّه أقسم علي استئصال ذريه آدم والسَّيطرة عليهم إلا قليلا ، وذلك كما صوَّره الفعل (لأحتنكنَّ) في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[5] .

فاحتناك الشَّيطان لبني آدم تتَّجه دلالته ، أو قل مجازه نحو " لأستميلنَّهم ولأستأصلنَّهم ، يقال : احتنك فلان ما عند فلان أجمع من مال أو علم أو حديث أو غيره : أخذه كله واستقصاه ، قال :

---

(1) الأعراف من الآية 17 . تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنان (تفسير السعدي) . حقَّقه . عبد الرحمن بن معلا ص 284– مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى 1420هـ – 2000م .

(2) سبأ من الآية 20 .

(3) البقرة من الآية 30 .

(4) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدِّراية من علم التفسير للشوكاني 3/ 241 – دار المعرفة – بيروت – لبنان .

(5) الإسراء من الآية 62 .

نشكو إليك سنة قد أجحفت ❊❊❊ جهدًا إلى جَهْد فأضعفت
واحتنكت أموالنا وجلَّفت[1]"

واستئصال الشَّيطان لبني آدم يعني الضَّلال والغواية ، حيث ذكر البغوي عن دلالة (لأحتنكنَّ) : " لأستأصلنَّهم بالإضلال . يقال : احتنك الجراد والزَّرع : إذا أكله كله ، وهو من قول العرب : حنك الدابة يحنكها : إذا شدَّ في حنكها الأسفل حبلا يقودها ، أي : لأقودنَّهم كيف شئت ، وقيل لأستولينَّ عليهم بالإغواء[2] " .

إذًا فالشَّيْطان يقسم بقوله (لأحتنكنَّ) على دلالة : " فلأستولينَّ عليهم وأحتويهم وأملك زمامهم وأجعلهم في قبضة يدي أصرف أمرهم[3] " .

" وهذه الألفاظ وإن اختلفت فإنها متقاربات المعنى ؛ لأن الاستيلاء والاحتواء بمعنى واحد ، وإذا استولى عليهم فقد أضلَّهم[4] ".

وقد بَرَّ الشيطان بقسمه عندما استجاب له كثير من بني البشر وخضعوا له ، فأحاط بهم ، ووجَّه وجهة وجوههم وقلوبهم ، وبني بينهم وبين الحق جدارًا عازلا يحجب عنهم جميع القيم والأخلاق التي تسعدهم، وتضيىء درب حياتهم ، فامتلك مشاعرهم وأحاسيسهم ، وسيطر على أفئدتهم .

ولكن هناك من عباد الله – ﷻ – من هم إلى الله أقرب ، وعن معصيته أبعد ، وإذا خُيِّروا بين طاعة ربِّهم وهوى أنفسهم وشياطينهم كانت أنفاسهم تهيم في رحاب الله ، وقلوبهم تحيا مع سُنَّة نبيِّهم – ﷺ – ، وهؤلاء لن يستطيع الشَّيطان أن يستولي عليهم ، أوأن يتمكَّن من إضلالهم ، أو امتلاك قلوبهم كما يقول ربنا – ﷻ – : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[5] .

---

(1) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمَّر بن المثنى . علق عليه . محمد فؤاد سزكين 384/1 – مكتبة الخانجي – القاهرة – 1374هـ - 1954م . وينظر البيت في : جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري . تحقيق. أحمد محمد شاكر 489/17 – مؤسسة الرسالة – الطبعة الأولى 1420هـ - 2000م ، والجامع لأحكام القرآن 387/10 .

(2) معالم التنزيل 104/5 .

(3) في ظلال القرآن 2238/4 .

(4) جامع البيان 489/17 .

(5) طه من الآية 123 .

الصُّورة الثَّالثة : سبيل الخُطُوات

تتعدَّد الذُّنوب والمعاصي في عالم البشر لتعدُّد سُبُل الشَّيْطان ومسالكه ، حيث يحبو الشَّيْطان في قلوب بني آدم وتحبو معه الذُّنُوب والآثام عن طريق اللَّمم منها ، حتى إذا ما تمكَّنت منه ذهب به إلى طريق الكبائر ، والتي تعني محاربة منهج الله وشرعه الذي شرعه لعباده .

لذلك نهانا الله – ﷻ – في محكم كتابه عن اتباع (خُطُواته) التي هي إحدى سُبُله حتى لا يعبث بنا ويفسد علينا حياتنا ، فينتقل بنا من عالم عنوانه (الصَّغائر) إلى عالم عنوانه (الخارجون عن حدود الله)، وذلك بتوجيه رسالة إلى النَّاس عامَّة ، ثم ثلاث رسائل إلى المؤمنين خاصَّة[1] .

فرسالته إلى النَّاس عامَّة تأتي في قول الله – ﷻ – : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ . إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[2] .

" فالخُطْوَة – بالضم –: ما بين القدمين ، وجمع القلَّة خُطُوات وخُطَوات وخُطْوات ، والكثير خُطىً[3] " .

ولكن دلالة (خُطُوات الشَّيْطان) في القرآن الكريم كانت محور خلاف العلماء ، فقيل بأنَّها عمله ، أو كل ما خالف القرآن فهو من خُطُوات الشَّيطان ، أو خطؤه ، أو نزغاته ، أو تزيينه ،أو كل معصية لله فهي من خُطُوات الشَّيْطان ، أو ما كان من يمين أو نذر في غضب فهو من خُطُوات الشَّيْطان وكفارته كفارة يمين ، وقيل غير ذلك[4] .

وهذه التفسيرات " قريب معنى بعضها من بعض ؛ لأنَّ كل قائل منهم قولا في ذلك ، فإنَّه أشار إلى نهي اتِّباع الشَّيْطان في آثاره وأعماله[5] " .

---

(1) وهي عنوان الصُّورة الأولى في الرسالة الثالثة .

(2) البقرة الآيتان : 168 ، 169 .

(3) الصحاح 2328/6 .

(4) الدر المنثور للسيوطي 403/1، 404 – دار الفكر – بيروت 1993م . وينظر : جامع البيان 31/3 ، 302 .

(5) جامع البيان 302/3 .

فالآية الأولى فيها إجمال بالتحذير من اتِّباع خُطُوات الشَّيْطان عامَّة ؛ لأن اتِّباع خُطُواته بداية ومقدمة للدخول في عالمه الذي يستعبد به قلوب بني آدم ، فإذا ما استعبدها فله عليهم حقُّ السَّمع والطَّاعة .

لذلك تأتي الآية الثانية " كالتَّفصيل لجملة عداوته، وهو مشتمل على أمور ثلاثة: **أولها :** السُّوء ، وهو متناول جميع المعاصي، سواء كانت تلك المعاصي من أفعال الجوارح أو من أفعال القلوب ، **وثانيها :** الفحشاء ، وهي نوع من السُّوء ؛ لأنها أقبح أنواعه ، وهو الذي يستعظم ويستفحش من المعاصي ، **وثالثها :** ﴿ أَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ كأنَّه أقبح أنواع الفحشاء ؛ لأنَّه وصف الله تعالى بما لا ينبغي من أعظم أنواع الكبائر ، فصارت هذه الجملة كالتفسير لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ فيدخل في الآية أن الشَّيْطان يدعو إلى الصَّغائر والكبائر والكفر والجهل بالله[1] " .

وقيل عن (الفحشاء) الزِّنا ، ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ وهو ما كانوا يحرِّمون من البحائر والسَّوائب والوصائل والحوامى ويزعمون أن الله حَرَّم ذلك[2] .

ومن هنا فأوامر الشَّيْطان تتمُّ بشكل غير مباشر ، يتتبَّع بنو الإنسان خُطُواته ، ويسيرون على نهجه ، فيأتمرون بأمره ويسبِّحون له ، وينتهون بنهيه كأنَّهم له عابدون .

ثم تأتي آية أخرى بالأمر المباشر من الشَّيْطان لأوليائه بعد أن صرفهم عن طريق الهدى بقوله كما حَدَّثنا القرآن الكريم ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ ﴾[3] ، وذلك بعد أن صاروا عبيدًا له ، توجِّههم أهوائهم وشهواتهم ؛ يأمرهم فيسلِّمون ويستسلمون ، وكأنَّهم قد أصبحوا طوع أمره ، يأمرهم بالحرام فيتَّبِعوه ، وينهاهم عن الحلال فينتهوا عنه .

والعرض هنا ليس محلا للقبول أوالرَّفض ، بل حقيقته الأمر ، فإذا أمرهم وقع أمره في قلوبهم ، وإذا أشار لهم لهثوا الثرى تلبية لدعوته ، حيث ربَّاهم على طاعته وامتثال أوامره ، فما كان منهم إلا الإحسان جزاء الإحسان إليهم – كما يعتقدون – .

---

(1) مفاتيح الغيب للفخر الرازي 5/5 – دار الكتب العلمية – بيروت – الطبعة الأولى 1412هـ –2000م . وينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 91/1 ، والدر المنثور 128/2 .

(2) ينظر : تفسير مقاتل بن سليمان 91/1 ، والدر المنثور 404/1 .

(3) النساء من الآية 119 .

وهذه هي بعض أوامر الشيطان التي أصدرها صراحة لهذه الفئة الضَّالة كما صَوَّرها القرآن الكريم في بعض آياته ، حيث يقول سبحانه وتعالى على لسانه : ﴿ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا . وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾[1] ، فهذا النَّصِيب المفروض من بني الإنسان قد خَرَّ راكعًا أمام أوامر الشيطان فظنَّ أن تقطيع آذان الأنعام وتغيير خلق الله من باب الحقِّ ، ولكن الحَقَّ أن الحَقَّ منه براء .

فالأمر الأول﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ﴾ : يعني ليقطِّعنَّ آذان الأنعام ، وهي البحيرة للأوثان ، حيث كانوا يقطِّعون أطراف آذانها ويحرِّمونها[2] ،ف " هذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحلَّ الله ، أو تحليل ما حرَّم الله ، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة ما هو أكبر من الإضلال[3] " .

والأمر الثاني :﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ : يعني ليبدلَنَّ دين الله ، وقيل : فليغيرنَّ خلق الله من البهائم بإخصائهم إيَّاها ، أو فقء الأعين وقطع الآذان ، وذلك كله تعذيب للحيوان ، وتحريم وتحليل بالطغيان ، وقول بغير حجة ولا برهان ، والآذان في الأنعام جمال ومنفعة ، وكذلك غيرها من الأعضاء ، فلذلك رأى الشَّيطان أن يغيِّر خلق الله تعالى[4] .

" فهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم ، والوشر والنَّمْص والتفلج الحسن ، ونحو ذلك مما أغواهم به الشَّيطان فغيَّروا خلقة الرَّحمن ، وذلك يتضمن التَّسخُّط من خلقه والقدح في حكمته ، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرَّحمن ، وعدم الرِّضا بتقديره وتدبيره ، ويتناول أيضًا تغيير الخلقة الباطنة ، فإنَّ الله تعالى خلق عباده حنفاء مفطورين على قبول الحقِّ وإيثاره ، فجاءتهم الشَّياطين فاجتالتهم عن هذا الخلق الجميل ، وزيَّنت لهم الشَّرَّ والشِّرك والكفر والفسوق والعصيان[5] ... " .

---

(1) النساء من الآية 118 ، والآية 119 .

(2) ينظر : جامع البيان 215/9 ، وتفسير مقاتل بن سليمان 258/1 ، والجامع لأحكام القرآن 389/5 .

(3) تيسير الكريم الرَّحمن ص 203 .

(4) ينظر : جامع البيان 215/9، وتفسير مقاتل بن سليمان 258/1 ، والجامع لأحكام القرآن 389/5 .

(5) تيسير الكريم الرَّحمن ص 203 .

ومن هنا فقد ارتدى هذا الإنسان رداء الشَّيْطان ، وحذا حذوه ، ونهج نهجه ، وائتمر بأمره ، واتبع سبيله ، ومن كان كذلك فلن تجد له وليًّا مرشدًا .

فإذا كان بعض الناس يعتقد أن صغائر الذُّنُوب تفنى أمام كبيرها فهو اعتقاد خاطئ ؛ لأنَّ من حَبَّات الرِّمال تكون الجبال الشُّم الرَّواسي ، ومن يوشك قرع الباب يوشك أن يفتح له ، فمن تتبَّع خُطُوات الشَّيْطان يوشك أن يقع تحت سلطانه ، فيلبي نداءه ، ويستجيب لأوامره .

" والاقتداء بالشَّيْطان : إرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر البشريَّة ؛ فإن الشَّيَاطين موجودات مدركة لها اتصال بالنفوس البشريَّة لعله كاتِّصال الجاذبية بالأفلاك والمغناطيس بالحديد ، فإذا حدث التَّوجه من أحدهما إلى الآخر بأسباب غير معلومة حدثت في النَّفس خواطر سيئة ، فإن أرسل المكلف نفسه لاتِّباعها ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة حقَّقها في فعله ، وإن كبحها وصدَّها عن ذلك غلبها ، ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة والقدرة وكمل لنا ذلك بالهدى الديني عونًا وعصمة عن تلبيتها لئلا تضلنا الخواطر الشَّيْطانية حتى ترى حسنًا ما ليس بالحسن[1] " .

وبذلك يصبح هذا الإنسان أسيرًا لشيطانه ، قد تشرَّب جسده بحبِّ الهوى والشَّهوات ، فأصبحت عالمه بعد أن خرج من هذا العالم الذي فطره الله عليه ؛ وذلك بعد أن أضَلَّه الله على علم وختم على قلبه ، فلم يعد له مخرج سوى طاعة أمره وتنفيذ رغباته حتى يبقى له وجود في هذا الوجود في اعتقاده .

والشَّيْطان في هذا السَّبيل يُشَرِّع لأوليائه ويضع دستورًا لهم ، حيث يعرض عليهم المعصية في صورة الطَّاعة ، وذلك من خلال بعض المناهج المكذوبة والخرافات الوهميَّة التي لا حقيقة لها إلا في قلوبهم المريضة ونفوسهم الأمارة بالسُّوء دائمًا .

فليعصم كُلُّ إنسان مِنَّا نفسه بعاصم من الله وخوف ورجاء حتى تثبت قوة إرادته بل قوة عقيدته : ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] "

(1) التحرير والتنوير 2/103 .

(2) آل عمران من الآية 101 .

الصُّورة الرَّابعة : سبيل الفتنة (ف ت ن)

رسالة عامَّة من ربِّ العباد – ﷻ – إلى بني البشر جميعًا ، تخطُّ سطورها معالم الطريق المستقيم ، وآداب المنهج السَّويِّ الذي لا يحيد عنه إلا زائغ أوهالك ، تأتي ضمن تحذير عام من خداع الشَّيْطان ومكره الذي يحيق بأوليائه ، تحت باب سُبُل الشَّيْطان ، ومن خلال عنوان سبيل (الفتنة) ، وذلك في قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾[1] .

فجماع معنى الفتنة : الابتلاء والامتحان والاختبار ، وأصلها مأخوذ من قولك : فتنت الفضة والذَّهب : إذا أذبتهما بالنَّار لتميِّز الردئ من الجَيِّد[2] .

يقول الجوهري : فتنت الذَّهب : إذا أدخلته النَّار لتنظر ما جودته[3] .

" وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شِدَّة ورخاء، وهما في الشِّدَة أظهر معنى وأكثر استعمالا . قال الله تعالى فيهما : ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةً ﴾[4] ، وقال في الشِّدَّة : ﴿ إِنَّمَا نَحۡنُ فِتۡنَةٞ ﴾[5] ... والفتنة من الأفعال التي تكون من الله تعالى ومن العبد ، كالبليَّة والمصيبة ، والقتل ، والعذاب ، وغير ذلك من الأفعال الكريهة . ومتى كان من الله يكون على وجه الحكمة ، ومتى كان من الإنسان بغير أمر الله يكون بضد ذلك[6] ... " .

فإذا كانت (الفتنة) ابتلاء واختبارًا فهي في حَقِّ الشَّيْطان مكر وخداع وضلال ، حيث ينسج لبني الإنسان بعض الأساطير والخرافات التي تحيد بهم عن منهج ربِّهم ، فينخدعون

---

(1) الأعراف الآية 27 .
(2) لسان العرب 5/3344 .
(3) الصحاح 6/2175 .
(4) الأنبياء من الآية 35 .
(5) البقرة من الآية 102 .
(6) المفردات ص 559 ، 560 .

بأوهامه ، ويستجيبون لمكره وخداعه ، وذلك كما حدث لأبيهم آدم – عليه السلام – وزوجه حواء .

فهذه الرِّسالة فيها " يقول تعالى ذكره : يا بني آدم ، لا يخدعنَّكم الشَّيْطان فيبدي سوءاتكم للنَّاس بطاعتكم إياه عند اختباره لكم ، كما فعل بأبويكم آدم وحواء عند اختباره إياهما فأطاعاه وعصيا ربَّهما ، فأخرجهما بما سبَّب لهما من مكره وخداعه ، من الجنَّة ، ونزعه عنهما ما كان ألبسهما من اللباس ، ليريهما سوءاتهما بكشف عورتهما ، وإظهارها لأعينهما بعد أن كانت مستترة[1] " .

ومن هنا ، وعندما يلبِّي الإنسان نداء شيطانه ويرضى بمكره وخداعه فلا يأمن على نفسه من كشف عوراته – ظاهرة وباطنة – أمام نفسه وأمام الناس ، فتبدو عيوبه وتنكشف مساوئه ، وكأنها غدت قصَّة تروى للمسافر والمقيم ، يتغنَّى بها كل غاد وعائد ؛ وذلك لأنَّه أبى أن يستجيب لنداء ربِّه وتحذيره ، فكانت النَّتيجة أن أزال الله عنه ستره ، وفضحه على رءوس الخلائق في الدُّنيا والآخرة .

إذًا فالدَّلالة واضحة المعالم ، والنَّهي صريح لا شبهة فيه ، فـ " فتون الشَّيْطان : حصول آثار وسوسته ، أي لا تمكِّنوا الشَّيْطان من أن يفتنكم ، والمعنى : النهي عن طاعته ، وهذا من مبالغة النَّهي ، ومنه قول العرب: لا أعرفنَّك تفعل كذا : أي لا تفعلنَّ فأعرف فعلك ، وقولهم : لا أرينَّك هنا : أي لا تحضرنَّ هنا فأراك ، فالمعنى : لا تطيعوا الشَّيطان في فتنته ، ومثل هذا كناية عن النَّهي عن فعل والنَّهي عن التعرُّض لأسبابه ، وشبه الفتون الصادر من الشَّيْطان للنَّاس بفتنة آدم وزوجه إذ أقدمهما على الأكل من الشجرة المنهي عنه ، فأخرجهما من نعيم كانا فيه ، تذكيرًا للبشريَّة بأعظم فتنة فتن الشَّيْطان بها نوعهم ، وشملت كل أحد من النَّوع ، إذ حرم من النَّعيم الذي كان يتحقَّق له لو بقي أبواه في الجنَّة وتناسلا فيها ، وفي ذلك أيضًا تذكير بأن عداوة البشر للشَّيْطان موروثة ، فيكون أبعث لهم على الحذر من كيده ... لأنَّ انكشاف السوءة من أعظم الفظائع والفضائح في متعارف النَّاس[2] " .

فهذه الصُّورة تتضمن تنبيهًا وتحذيرًا وتهديدًا من فتنة الشَّيْطان، حتى لا يُرد الإنسان على

---

(1) جامع البيان 373/12 . وينظر : الجامع لأحكام القرآن 186/7 ، ومعالم التنزيل 223/3 ، وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي 222/3 – دار إحياء التراث العربي – بيروت .

(2) التحرير والتنوير 76/8 ، 77 .

عقبيه بعد إذ هداه الله للإيمان ، وعلَّمه قواعد الدين وحدوده ، فما مِنْ أحد يراه من أولي الألباب إلا ويعلم أنَّه عاص لمولاه – ﷻ – ، ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[1] .

الصُّورة الخامسة : سبيل الاستفزاز (فزز)

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان في أحسن صورة وأجمل هيئة، كريم الأخلاق ، عزيز النَّفس ، يأبى أن يذلَّ أو يهان ، رزقه الله من الطَّيبات ، وفضَّله على كثير من المخلوقات .

صوَّر ذلك المعنى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[2] ، ولكن مع كل هذه النِّعَم الرَّبَّانية إلا أنه قد رضي لنفسه الذُّلَّ والهوان ، والاستكانة والخضوع فسلَّم نفسه للشَّيْطان يوجِّهه كيف يشاء ، فلا تستقر سفينته ، ولا يسكن قلبه ، ولا تطمئن جوارحه ؛ وكأنَّه ريشة في مهبِّ الريح إلا من رحم ربِّي .

وصورة الشَّيْطان التي يترجم لها هذا السبيل تجتمع فيها كل ألوان القوَّة وأشكال الشِّدَّة ، حيث يخرج فيها كل ما في جعبته ، حرصًا على إزعاج مرقد الإنسان ، وعلى تغيير سمت حياته ، وذلك تحت عنوان سبيل (الاستفزاز) .

والاستفزاز في عرف أهل اللغة يساوي الإزعاج ، حيث قيل : " فَزَّه فَزًّا ، وأفَزَّه : أفزعه وأزعجه وطيَّر فؤاده .. واستفَزَّه من الشيء : أخرجه واستفَزَّه : خَتَله حتى ألقاه في مهلكة . واستفَزَّه الخوف : أي استخفَّه[3] " .

وهذه اللفظة بكل مشتقَّاتها لم تذكر في كتاب الله – ﷻ – إلا في ثلاثة مواضع ، وفي سورة واحدة ، والدلالة فيها جميعا تتجه نحو الإزعاج عن طريق الحيلة والمكر والخداع ، رغبة في الاستخفاف بالعقول ، وظنًا وأملا في أن يكون ذلك سبيلا لتحقيق الأهداف والغايات.

---

(1) النور من الآية 63 .

(2) الإسراء من الآية 70 .

(3) لسان العرب لابن منظور الإفريقي.تحقيق . علي عبد الله الكبير وآخرين 409/5 – دار المعارف . وينظر : الصحاح 890/3، والمفردات ص 570 .

وقد استخدمت في الآية الأولى كسبيل عام من سُبُل الشَّيْطان ، وفي الثانية كدليل مكر وخداع من اليهود ، ثم في الثالثة قسوة وجبروت من فرعون لبني إسرائيل .

وقد ظهر دليل مكر اليهود وخداعهم في قوله تعالى : ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ﴾[1] .

فيستفزُّونك " بمعنى ليفتنونك عن رأيك ، أو يزعجونك ويستخفُّونك ، وهم يهود المدينة وناحيتها كحيي بن أخطب وغيره ، وذلك أنَّهم ذهبوا إلى المكر برسول الله – ﷺ – فقالوا : إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء ، وإنما أرض الأنبياء الشَّام ، ولكنَّك تخاف الروم فإن كنت نبيًّا فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء فنزلت[2] " .

ثم يأتي مكر فرعون واستخفافه بقومه في قوله تعالى : ﴿ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾[3] ؛ حيث " أراد فرعون أن يستخِفَّ موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها ، أو ينفيهم عن ظهر الأرض بالقتل والاستئصال ، فحاق به مكره بأن استفَزَّه الله بإغراقه مع قبطه[4] " .

وأما الاستفزاز كسبيل من سُبُل الشَّيْطان فقد أجمله الله– ﷻ –، ثم بيَّنه تفصيلا في هذه الآية الكريمة ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[5] .

فلفظة (الاستفزاز) في الآية تحمل جميع دلالات المكر والحيلة والدَّهاء ، من أجل الاستخفاف بعقول بني آدم جميعًا وإزعاجهم، وذلك على وجه استذل واستخف واستجهل

(1) الإسراء من الآية 76 .

(2) البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي . تحقيق . عادل أحمد عبد الموجود وآخرين 62/6 – دار الكتب العلمية– بيروت – لبنان 1422هـ – 2001م . وينظر : الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري 685/2 – دار الكتاب العربي .

(3) الإسراء الآية 103 .

(4) الكشاف 698/2 .

(5) الإسراء الآية 63 .

بعقول من استطعت منهم .

ولكن ما هي طرق الاستفزاز ومداخله التي يستحوذ بها عليهم، ويتمكَّن من خلالها على قلوبهم ؟ .

أجابت الآية الكريمة على هذا السؤال وفصَّلته تفصيلا ، ثم بيَّن دلالته المفسِّرون بأقوالهم وتوجيهاتهم على نحو اتضحت معه الرؤية واكتملت من خلاله الصورة ، حتى لا يظن ظانٌّ أن الجهل قد استحوذ عليه أو تملَّكه ضباب فلم يبصر معه الحقيقة .

الطَّريق الأول : الصَّوت : وهو كل داع إلى معصية الله تعالى ، أو الغناء والمزامير واللهو ، أو الوسوسة .

الطَّريق الثَّاني : الخيل والرَّجْل : وهو كل راكب وماش في معصية الله ، أو إنَّ له خيلا ورجلا من الجِنِّ والإنس ، فما كان من راكب وماش يقاتل في معصية الله فهو من خيل إبليس ورجالته ، أو كل خيل سارت في معصية الله ، وكل رجل مشى في معصية الله ، وكل مال أصيب من حرام ، وكل ولد بغية فهو للشَّيْطان .

الطَّريق الثَّالث : الأموال والأولاد : فالأموال إنفاقها في معصية الله ، أو هي التي أصابوها في غير حلِّها ، أو ما كانوا يحرِّمونه من البحيرة والسَّائبة والوصيلة والحام ، أو ما كانوا يذبحونه لآلهتهم ، والأولاد : أولاد الزِّنا ، أو ما قتلوا من أولادهم وأتوا فيه من الجرائم ، أو تسميتهم عبد الحارث وعبد العزَّى وعبد اللات وعبد شمس ونحوه ، أو صبغة أولادهم في الكفر حتى هوَّدوهم ونصَّروهم ، كصنع النَّصارى بالغمس في الماء الذي لهم . وقول خامس روى عن مجاهد قال : إذا جامع الرجل امرأته ولم يسمِّ انطوى الجانُّ على إحليله فجامع معه ، فذلك قوله : ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴾[1] .

الطَّريق الرَّابع : الوعد والأماني : أي مَنِّهم الأماني الكاذبة ، وأنَّه لا قيامة ولا حساب ، وأنَّه إذا كان حساب وجنَّة ونار فأنتم أولى بالجنَّة من غيركم . يقوِّيه قوله تعالى : ﴿ يَعِدُهُمْ

(1) الرَّحمن الآية 74 . والحديث منكر مقطوع . سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمَّة . محمد بن ناصر الألباني 603/12 – دار المعارف – الرياض – المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى 1412هـ - 1992م . وينظر : نوادر الأصول في أحاديث الرسول ﷺ للترمذي . تحقيق . عبد الرحمن عميرة 384/1 – دار الجيل – بيروت 1992م .

﴿ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] : أي باطلا ، وقيل : أي عدهم النَّصر على من أرادهم بسوء[2] ، " وهذا الأمر للشَّيْطان تهديد ووعيد له . وقيل استخفاف به وبمن اتَّبعه[3] " .

وفي آية أخرى يقسم الشَّيْطان على بني آدم وخاصَّة الطُّغاة منهم بقوله كما حدَّثنا القرآن الكريم: ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾[4] أي: " ﴿ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ ﴾ بالباطل ولأخبرنَّهم ألا بعث ولا جنَّة ولا نار[5] " .

وفي آية أخرى يقول ربُّنا – ﷻ – ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾[6] : " فإنَّه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا ، ويخوِّفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾[7] ، ويخوِّفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن مما يدخله في عقولهم حتى يكسلوا عن فعل الخير[8] " .

فهذا الباطل الذي استخفَّ به الشَّيْطان عقول بني آدم " هو تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاعر والعقول ، وفي المعركة الصاخبة ، تستخدم فيها الأصوات والخيل والرَّجْل على طريق المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصَّوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفخِّ المنصوب والمكيدة المدبَّرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرِّجال ! ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾[9] وهذه الشركة تتمثل في أوهام الوثنية الجاهلية ... والتعبير يصوِّر

(1) النساء الآية 120 .

(2) الجامع لأحكام القرآن 287/10 : 289 . وينظر : معاني القرآن للفراء . تحقيق . أحمد يوسف نجاتي ، ومحمد علي النَّجار 127/2– 1955م ، ومعاني القرآن وإعرابه للزَّجاج 250/30 ، وجامع البيان 490/7 ، 493.

(3) الجامع لأحكام القرآن 290/10 .

(4) النساء من الآية 119 .

(5) تفسير مقاتل بن سليمان 258/1. وينظر: تيسير الكريم الرَّحمن ص 203 .

(6) البقرة من الآية 268 .

(7) آل عمران من الآية 175 .

(8) تيسير الكريم الرحمن ص 203.

(9) الإسراء من الآية 64 .

في عمومه شركة تقوم بين إبليس وأتباعه تشمل الأموال والأولاد وهما قوام الحياة ! وإبليس مأذون في أن يستخدم وسائله كلها ، ومنها الوعود المغرية الخادعة : ﴿ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾[1] ، كالوعد بالإفلات من العقوبة والقصاص ، والوعد بالغني من الأسباب الحرام ، والوعد بالغلبة والفوز بالوسائل القذرة والأساليب الخسيسة ، ولعل أشد الوعود إغراء الوعد بالعفو والمغفرة بعد الذنب والخطيئة ؛ وهي الثَّغرة التي يدخل منها الشَّيْطان على كثير من القلوب التي يعزُّ عليه غزوها من ناحية المجاهرة بالمعصية والمكابرة ، فيتلطَّف حينئذ إلى تلك النُّفوس المتحرِّجة ، ويُزِّين لها الخطيئة وهو يلوح لها بسعة الرَّحمة الإلهية وشمول العفو والمغفرة ! اذهب مأذونًا في إغواء من يجنحون إليك . ولكن هنالك من لا سلطان لك عليهم ؛لأنهم مزودون بحصانة تمنعهم منك ومن خيلك ورجلك ! ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾[2] ".

فهذه هي بعض طرق الشَّيطان ومكايده ، حيث ينتقل بالإنسان من سوء إلى أسوأ ، ومن باب من أبواب الاستخفاف بعقولهم إلى أبواب ، ومن لون واحد من ألوان الآثام والذُّنوب والمعاصي إلى عدَّة تشكيلات منها ، وكأنَّه يبدأ معهم بمرحلة تدريجية حتى يستعبد قلوبهم، فهو يغريهم أولا بصوته ، ثم يجمع لهم ما يشاء من خيله ورَجْله ، ثم يشاركهم في الأموال والأولاد ، وأخيرًا يعدهم ويمنِّيهم الباطل فيعرضه في صورة الحقِّ حتى ينتهي بهم إلى عالم لا أخلاق فيه ولا خلاق .

فهذا هو فرعون واستخفافه بقومه والهاوية التي قذفت به وبهم، وهذا هو استخفاف اليهود ومحاولة مكرهم بحبيب الحَقِّ محمد – ﷺ – ، ومصيرهم الذين آلوا إليه دنيا وأخرى ، فماذا عن خير أمَّة أخرجت للناس ؟ .

سؤال يجيب عنه كل من في قلبه مثقال ذرَّة من إيمان ، وكل من تعلَّق قلبه بالله وخضع لتعاليم الشَّرع الحنيف ، فأجب أيها المسلم قبل أن ينقطع الجواب وتنعدم الأسباب ،﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[3] .

---

(1) الإسراء من الآية 64 .

(2) الإسراء الآية 65 . في ظلال القرآن 4/2239 .

(3) الشعراء الآيتان 88 ، 89 .

الصُّورة السَّادسة : سبيل القعود (ق ع د)

ليست قضية الشَّيْطان في هذا السَّبيل إثارة الخَطَرات ، أو طمس المعالم وإثارة الشَّهوات ، أو تزييف الحقائق بالمكر والخداع في قلوب بني آدم ، بل قضيته هي التي أعلنها صراحة منذ بدء الخليقة دون تعريض أو تلميح ، أو كذب أو تزييف ، وهي الخصومة والعداوة إلى يوم الدِّين، فهو يسأل نفسه دائمًا كيف يحيا الإنسان في ظلال جَنَّة الدنيا إن رضى بمنهج رَبِّه ، وجَنَّة الآخرة إن كان لهذا المنهج واقع في حياته ، ويحيا هو في عالم الكذب والنِّفاق وسوء الأخلاق في الدُّنيا وما له في الآخرة من نصيب ؟ .

لذلك فهو في هذا السَّبيل يحرص على إضلال بني البشر غاية الحرص ، ويسعى بكل جدِّه واجتهاده إلى إدراك هذه الغاية ، ولن يدعهم مقسمًا على ذلك حتى يحوِّل بستان حياتهم إلى جحيم ، ونور صباحهم إلى صريم ، فتفنى جَنَّات ربِّهم التي أعدَّها لهم ولم يعد لها بقاء ، فيصير المآل في النهاية إلى خسران وضلال مبين .

والحرص على إدراك هذه الغاية جَسَّده سبيل (القعود) الذي ذكره ربُّنا – ﷻ – في قوله : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾[1] .

فالقعود : نقيض القيام ، قعد يقعد قُعُودًا ومَقْعدًا : أي جلس[2]، وأما القعود على صراط الله المستقيم فهو سبيل من سُبُل الشَّيْطان فيه معنى الحزم والإصرار على غواية بني البشر ، وصرفهم عن منهج الله وطريقه السَّويِّ ، وفي قسمه دلالة على جدِّه واجتهاده وإلزامه أن يبرَّ بقسمه، فالأمر عنده ليس مجرد محاولة بل تأكيد وعزم ، لذلك قال﴿ لَأَقۡعُدَنَ ﴾ ، وهو يحمل دلالة "لألزمَنَّ الصِّراط,ولأسعى غاية جهدي على صدِّ النَّاس عنه وعدم سلوكهم إياه[3]".

" وصراطك المستقيم " تعني طريقك القويم ، وذلك دين الحَقِّ ، وهو الإسلام وشرائعه[4] .

إذًا فالشَّيْطان يدور مع الإنسان حيث دار ، يعرض له في كل مقصد من مقاصد الخير ،

---

(1) الأعراف الآية 16 .

(2) لسان العرب 5/ 3686 .

(3) تيسير الكريم الرَّحمن ص 248 .

(4) جامع البيان 12/334 . وينظر : المحرر الوجيز 7/22.

وفي كل درب من دروبه ، حتى يذر دين ربِّه ويرضى بدينه ، فهو يخاطب ربَّه بهذه الكلمات والعبارات التي ترجمها المفسِّرون بمعنى : " لأصدَنَّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك ، ولأغوينَّهم كما أغويتني ، ولأضلنَّهم كما أضللتني[1] " ، ويحتمل قعود الشيطان "على طريقهم أو في طريقهم[2] " .

وفي التعبير القرآني تحدٍّ عجيب وعداء مستحكم ، بل قل : " هو الإصرار المطلق على الشَّرِّ ، والتَّصميم المطلق على الغواية ، وبذلك تتكشَّف هذه الطَّبيعة عن خصائصها الأولى ، شرٌّ ليس عارضًا ولا وقتيًّا ، إنما هو الشَّرُّ العامد القاصد العنيد ... إنَّه سيقعد لآدم وذريته على صراط الله المستقيم ، يصدُّ عنه كل من يهمُّ منهم باجتيازه، والطريق إلى الله لا يمكن أن يكون حسًّا، فالله سبحانه جلَّ عن التحيُّز ، فهو إذن طريق الإيمان والطاعات المؤدِّي إلى رضي الله[3] " .

وإذا كان القرآن الكريم قد أجمل في الآية (قعود الشيطان) للإنسان على صراط الله المستقيم فإن حديث النبي – ﷺ – قد فصَّله وبيَّنه ، حيث " أخرج أحمد والنسائي وابن حبَّان والطبراني والبيهقي في شعب الإيمان عن سبرة بن الفاكه سمعت رسول الله – ﷺ – يقول : إن الشَّيْطان قعد لابن آدم في طرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آبائك فعصاه فأسلم ، ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له: أتهاجر وتذر أرضك وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كالفرس في طِوَله فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : هو جهد النَّفْس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال فعصاه فجاهد ، قال رسول الله– ﷺ –: فمن فعل ذلك فمات أو وقصته دابته فمات كان حقًّا على الله أن يدخله الجَنَّة[4] " .

---

(1) جامع البيان 334/1 .

(2) معاني القرآن للفراء 375/1 . وينظر : المحرر الوجيز 21/7 .

(3) في ظلال القرآن 1266/2، 1267 .

(4) الدر المنثور 426/3. وينظر : المعجم الكبير للطبراني . تحقيق . حمدي عبدالمجيد السلفي 117/7 – مكتبة العلوم والحكم – الموصل – الطبعة الثانية 1404هـ - 1983م ، وبغية الباحث عن زوائد مسند الحارث بن أبي أسامة للهيثمي . تحقيق د. حسن أحمد صالح الباكري 150/1 (باب فيمن أسلم وهاجر) – مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة – الطبعة الأولى 1413هـ - 1992م ، ومصنف بن أبي شيبة . تحقيق . محمد عوامة 293/5 – الدار السلفية الهندية القديمة .

فإذا كان الشَّيْطان يمتلك هذه القوَّة الوهميَّة ويستطيع من خلالها أن يصدَّ بني البشر عن ذكر ربِّهم ، ويقسم على ذلك فإنَّ الإنسان يمتلك القوَّة الحقيقيَّة التي جُسِّدت في الإيمان ، وحُمِيت بمحاسن الأخلاق ، فيستطيع غزو شهوات نفسه والقضاء عليها ، وإلزامها بصدِّ ضربات شيطانه حتى تهوى إلى عالم فسيح لا خصب فيه ولا نماء .

فكما أقسم الشَّيْطان بالقعود على صراط الله المستقيم وصدِّ بني الإنسان عنه فليقسم الإنسان بالسَّير على هدى ربِّه القويم ، ونور كتابه المبين ، وسبيل خير المرسلين حتى يكتب من الخالدين في جَنَّات النعيم.

فهذه هي حقيقة الشَّيْطان وحقيقة مكره وكيده ببني آدم ، وسُبُله التي يوجِّهها لهم جميعًا كما أظهر جوهرها وبَيَّن معالمها القرآن الكريم، فهل يتراءى الحق في قلوب من تبقَّى من أمَّة محمد – ﷺ – ، ويبزغ ضوء الصبح أمام أعينهم كما تراءى مع الصحابة – رضوان الله عنهم – وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ، أم تحيط بهم سُبُل الجهالة كما أحاطت بكثير ممن كان قبلهم؟.

" فمتى اتصل القلب بالله واتجه إليه بالعبادة . متى ارتبط بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها ، متى أيقظ في روحه النَّفخة العلوية فأشرقت وأنارت ... فلا سلطان حينئذ للشَّيْطان على ذلك القلب الموصول بالله ، وهذا الرُّوح المشرق بنور الإيمان[1] " .

فليقعد الشيطان لبني الإنسان على كل طريق من طرق الخير ، وليغلق جميع النوافذ والأبواب التي تصل العبد بربِّه ، وليتشكَّل ويتلوَّن كيفما شاء ، فليست صورته في النهاية إلا صورة تمثال من ثلج يذوب ويتساقط خجلا وحياء أمام النَّفْس المؤمنة الراضية بقضاء ربِّها وقدره ، والواثقة من فضل الله وتفضُّله عليها وإحسانه إليها ، ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[2] .

(1) في ظلال القرآن 4/2239 .

(2) الأعراف من الآية 156 .